قراءة تحليلية لمسألة الحدس في فلسفة هنري برغسون

Title in English Analytical Reading of the question of intuition in the philosophy of Henri Bergson

موسى أمعوش [1*]، بوعلام بن شريف[2]

[1]جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 (الجزائر)، مخبر تطوير الخطاب الفلسفي والتنمية الثقافية والاجتماعية في الجزائر،
a.moussa@univ_setif2.dz

[2] جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 (الجزائر)، مخبر تطوير الخطاب الفلسفي والتنمية الثقافية والاجتماعية في الجزائر،
b.bencherif@univ_setif2.dz

Amaouche Moussa[1], **Boualem Bencherif**[2]

[1] University Mohamed Lamine Dabaghine Setif2 (Algeria), Laboratory of developing philosophical discourse and cultural and social development in Algeria,
a.moussa@univ_setif2.dz

[2] University Mohamed Lamine Dabaghine Setif2 (Algeria), Laboratory of developing philosophical discourse and cultural and social development in Algeria,
b.bencherif@univ_setif2.dz

تاريخ الاستلام:2025/07/09 تاريخ القبول:2026/04/15 تاريخ النشر:2026/07/31

ملخص: تهدف هذه المقاربة، التي نحن بصدد بلورتها في هذه الورقة البحثية، إلى مناقشة مسألة الحدس عند الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون، بما هو مفهوم يحرز مكانة محورية ضمن المنظومة الإجرائية لفلسفته الروحانية. فالحدس، كما صاغه برغسون، ليس مجرد أداة معرفية، بل هو منهج مستقل قائم على الانفعال الروحاني المباشر والاتصال الحيوي بالجوهر المتغير للواقع، وهو ما يمنحه دلالة خاصة في نسق فلسفي يؤسس للمعرفة انطلاقًا من التجربة الذاتية الباطنية وانطلاقًا من هذه الأهمية، فإن البرغسونية، باعتبارها نسقًا فلسفيًا متكاملًا، ارتكزت في عمقها على هذا المنهج، مما جعل من الحدس وسيلة لفهم الزمن، والحياة، والوعي، بطريقة تتجاوز المعطى العقلي المجرد وقد بات من الممكن اليوم، في ظل عودة بعض الفلسفات المعاصرة إلى إعادة التفكير في الذات والروح والزمن، أن نستعيد الحدس البرغسوني كأداة لفهم ما لا يقبل الاختزال إلى مفاهيم رياضية أو علمية لذلك، تسعى هذه الورقة إلى مساءلة هذا المنهج من زاويتين: من جهة قدرته على إنتاج معرفة موضوعية رغم طابعه الذاتي، ومن جهة حدود فعاليته في السياق الفلسفي المعاصر الذي يشهد توترًا متزايدًا بين العقلانية الصارمة والنزعات الروحانية الجديدة.

الكلمات مفتاحية: الحدس، المنهج، الديمومة، الزمن، اللحظة.

Abstract: This research paper examines Henri Bergson's concept of intuition as a pivotal, independent method within his spiritual philosophy. Transcending abstract rational data, Bergsonian intuition establishes knowledge through inner subjective experience and a vital connection to reality, time, and consciousness. Given the contemporary philosophical return to the self and time, this paper recovers intuition to understand concepts irreducible to science or mathematics. It investigates this approach from two perspectives: its capacity to generate objective knowledge despite its subjective nature, and its effectiveness limits amid current tensions between strict rationalism and new spiritual trends.

Keywords: Intuition, Methodology, Durability, Time, The moment.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

في الواقع إن الحديث عن مسألة الحدس عند برغسون هو حديث بالغ التعقيد وقد لا يؤدي بنا إلى نتيجة حتمية ومطلقة، فهو من ناحية يطرح ما له علاقة بالقدرات والملكات والانفعالات الداخلية التي يحملها الإنسان، ومن ناحية أخرى يطرح مدى قدرة الإنسان ترجمة هذه الانفعالات والملكات في سلوكات ونشاطات واعية تتجسد في حياته وواقعه. من هنا سيكون من الصعوبة نحت مفهوم دقيق للحدس، لأنه لا يمكن وضعه في إطار ومجال محدد مغلق وفقط، بيد أن برغسون ذاته ينفي قضية نحت وصياغة المفاهيم على أساس أنها مفاهيم وتصورات جاهزة مغلقة وفقط، ذلك أن الحدس عملية مباشرة وجهد حيوي خلاق، عميق ومتواصل داخل بؤرة الذات يسعى لكشف كل القدرات الانفعالية الروحانية الكامنة فيها، إنه ببساطة مقاربة الذات للموضوع، هذا وإن كان الكثير يعتقد بأن الحدس مجرد ملكة من ملكات الإنسان التي فطر عليها قريبة من العقل، إلا أنه ليس ملكة فكرية شأنها شأن العقل الذي ينسج تصورات نسبية عن الموضوعات الخارجية بمحض الصدف أو ما إلى ذلك، إنه منهج معد وقائم بذاته اعتمده برغسون لأجل إعادة ترميم الصرح المعرفي الميتافيزيقي وبناء فلسته خاصة.

إنه لمن العبث مباحثة مفهوم الحدس والحدس عموما من حيث هو منهج عند الفلاسفة المعاصرين السابقين، لأن ذلك يعد بحثا في الفراغ إن صح هذا القول، لكن ما نسعى إليه هو إبراز خصوصية موقف برغسون من هذه المفهوم الصارم والمعقد، وإن كانت تلك الخصوصية متوافرة لكن ما الذي جعل من برغسون ذاته يفرد مباحث داخل مؤلفاته لهذا المفهوم بدءا من مؤلفه بحث في المعطيات المباشرة للشعور، التطور الخلاق إلى غاية آخر مؤلف له منبعا الأخلاق والدين ويعتبره هو نفسه منهجا لفلسفته؟ أو على الأقل ما دلالته بالنسبة إليه؟ وما هي أسسه ومبادئه؟

ونحن، في هذا الطرح الفلسفي لمسألة الحدس عند الفرنسي هنري برغسون ارتأينا توظيف المنهج التحليلي الذي رأيناه مناسبا لتقديم رؤية شاملة حول القضية الواردة أعلاه.

هذا ما يتجلى من خلال خطوات هذه الورقة العلمية الآتية حيث تطرقنا في البداية إلى مفهوم الحدس عند برغسون، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى إماطة اللثام عن أسسه ومبادئه مع كشف الموقف المناهض للمنظور البرغسوني لمسألة الحدس.

2. مفهوم الحدس:

1.2 **الحدس كمنهج**: إن إهمام برغسون بقضية المنهج من حيث هو منطلق أولي لكل فلسفة أو مذهب فلسفي كان منذ شروعه في عملية التأليف، هذا وقد كان كذلك لسعة اطلاعه وبحثه العميق للمناهج المتداولة في الميتافيزيقا التقليدية، التي ورثت مسألة مفادها صياغة تصورات ومفاهيم إدراكية جاهزة عن الأشياء، منذ ذلك الحين كان هاجس برغسون إقامة منهج صارم من شأنه أن يحافظ على صيرورة البحث والكشف عن الحقائق، وكذا الانكفاء من خلاله عن صياغة مذاهب قائمة على تصورات ومفاهيم جاهزة ومغلقة، هذا وقد تشكلت هذه القناعة كذلك لدى برغسون عندما بحث الميتافيزيقا التقليدية وكشف فيها عن ثلة من المبادئ والقوانين والمناهج

التي تتنافى مع ميول البحث والتفلسف، ذلك أدى به إلى صياغة منهج لفلسفته كان عنوانه الأوحد "منهج الحدس" كبديل للمناهج الأخرى بغية إعادة بناء الأفق الميتافيزيقي الحقيقي.

يقول "جيل دلوز" في معنى هذا الحدس (intuition) بما هو منهج:" إن الحدس هو منهج البرغسونية، والحدس ليس عاطفة ولا انجذاب مشوشا، بل هو منهج معد، وحتى أحد مناهج الفلسفة الأكثر إعدادا. له قواعده الصارمة، التي تشكل ما يسميه برغسون "الزمان" في الفلسفة" (دلوز، 1997، صفحة 05) يؤكد هذا القول أن برغسون كغيره من الفلاسفة المعاصرين السابقين اتخذ الحدس كمنهج ضروري وحتمي لفلسفته، لكن مقوله الحدس في فلسفته تأخذ طابع مختلف عن مقولة الحدس التي ربما نعثر عليها في فلسفة هؤلاء الفلاسفة السابقين على سبيل المثال ديكارت، كانط وغيرهم من الفلاسفة، هذا وإن الحدس بمفهومه الدقيق عند برغسون ليس مجرد إلهام وانجذاب نابع من الذات اتجاه موضوعها وفقط، بل يعد طريقة موضوعية إن لم نقل منهج صارم يتسم بالعراقة والعمق كالمناهج الأخرى، باختصار هو طريقة مقننة تنطوي على مجموعة من القواعد المحكمة وعبر هذه القواعد تمكننا في نظره من معرفة الديمومة (durée) أو الزمان الحقيقي في الفلسفة.

إن هذا المعنى الذي قدمه برغسون للحدس في فلسفته بما هو منهج معد للفلسفة كما بين جيل دلوز، أثر في الكثير من الفلاسفة الذين أتوا من بعده ومثال ذلك نجد إدموند هوسرل هذا الفيلسوف الألماني الذي هو الآخر أفرد مؤلفا ضخما لا يقل أهمية عنوانه "الفلسفة بوصفها علما صارما" ومن خلال مؤلفه هذا بين لنا كيف يتم لنا صياغة منهج معد وصارم من شأنه أن يجعل من الفلسفة علما دقيقا شأنه شأن العلوم الدقيقة الأخرى، هذا المنهج الذي كرس حياته من أجل بناء أسسه ومبادئه يتمثل في "المنهج الفينومينولوجي" إنه المنهج الذي يعيد الاعتبار لعملية التفلسف ويجعلها عملية علمية موضوعية دقيقة، إن هذا العمل الجبار الذي أدخله هوسرل في المشهد الفلسفي الغربي كان برغسون سباقا له منذ وقت طويل، كان كذلك هو الآخر يمتلك قناعة في جعل الفلسفة علما صارما وليس علما جاهزا.

لقد أكد دلوز مرة أخرى هذا الرأي من خلال قراءته المعمقة لفلسفة برغسون من أن برغسون كما يقول " كان يعتمد على منهج الحدس لتحديد الفلسفة كنظام "دقيق" بصورة مطلقة لا يقل دقة في حقله عن العلم(...)" (دلوز، 1997، صفحة 06) أي أن برغسون أراد بمنهجه الحدسي وضع الفلسفة في مرتبة الدقة، تلك الدقة التي كان يتباهى وينعت العلم بها نفسه في الآونة الأخيرة، لتصبح تبعا لذلك نظام له قوانينه الصارمة والمطلقة لكن بطريقة مختلفة. تأسيسا على ما سبق يبين لنا برغسون الحدس في معناه الدقيق والجازم يقول:" إن الحدس هو تلك الكلمة التي هي أمام ما نحن مترددين فيه لفترة طويلة، وهي الأكثر ملائمة من بين الكلمات التي تدل وتعبر عن طريقة في المعرفة، ومع ذلك فهي جاهزة للخلط، وذلك عندما كان شلنج، وشوبنهاور وغيرهم، لقد اخذوا بالحدس من قبل ولأنهم عارضوا بشكل أو بآخر الحدس بالعقل، خيل للكثير منا أننا أخذنا بنفس المنهج(...)، وذلك بالعكس لم يوجد عندنا إلا للبحث في الديمومة الحقيقية" (Bergson H. , la pensée et le mouvant, 1966, p. 02)

إن برغسون على ضوء ما ذكره هنا وضع موقفه خلال بحثه مفهوم الحدس موضع نقيض لكل ما قدم من معاني ومفاهيم للحدس في الفلسفات السابقة، بحكم أن طريقة فهم الفلاسفة السابقين للحدس تتجلى في اعتبار

الحدس مجرد نشاط فكري يقترب من النشاط الذي يمارسه العقل في محاولة وصوله إلى الحقيقة المطلقة، على العكس من ذلك نجد برغسون لا يريد ضرب الحدس بالعقل أو الزج بالعقل كذلك، وأكثر من ذلك لا يريد معارضة الحدس بالعقل كما اعتاد الفلاسفة السابقين على ذلك، بل إن مفهوم الحدس هنا في رأي برغسون هو طريقة في المعرفة تبحث وتسعى للكشف عن الديمومة التي لا تتوقف في الوجود، هذه الديمومة التي لا ندركها بدون هذا الجهد الذي تمارسه الذات، لأنه بفضل ذلك نستطيع اكتشاف الزمان الشعوري الحقيقي الذي يلازم الإنسان في الوجود ويثبت كينونته.

إن اعتبارا من هذا القبيل هو دون أدنى شك ضروري بالنسبة لبرغسون لأجل إعادة تأسيس وبناء منهج الميتافيزيقا والفكر عموما، ومن ثم يصبح الفكر له منهجين: الأول يتمثل في العقل العملي الذي ينصب حول المادة، والثاني هو الحدس الذي يصور على أن الحياة في إبداع خلاق، فالأول يمثل باستحقاق الحياة على أنها ميكانيكية صارمة أو هي "تصميم عقلاني"، وأما الثاني، بدون شك يمثل الامتداد في نشاطه الأول والذي لا يمكن التنبؤ به. (Didier Frank, 1984, p. 78)

إن برغسون ضمن الفلاسفة يعترف بالمنهج الثاني الذي هو منهج الحدس الذي ينقل لنا صورة الحياة في تغيرها وإبداعها الخلاق، إنه منهج الميتافيزيقا الصارم والفلسفة، وعلى ذلك تكون المهمة الأساسية للميتافيزيقا والفلسفة عامة، فيما يرى، تتمثل في العمل على تأسيس علاقة تلاقي حدسية بين الذات والموضوع، وأن الذات تصبح من الآن فصاعد تحدس موضوعها، وأنه لا يمكن تأسيس تصور كلي ووافي عن موضوع ما دونما نعود إلى تجربة الذات الباطنية العميقة، مثال ذلك عندما أشاهد سيارة كمادة وموضوع في العالم الخارجي ربما عن طريق عقلي مباشرة أنشئ تصورا عنها بأنها مجرد وسيلة للترفيه أو ما إلى ذلك.

لكن عندما أخضع هذا التصور لمحك حدسي أصبح أتصور هذه السيارة تصورا مغايرا يجعلني أطرح عدة تساؤلات ماذا تشكل بالنسبة لوجودي؟ هل تساهم في بناء حريتي، أو سعادتي أو مصير؟ ونفس الشيء عندما نتأمل في الحياة عامة، العقل يرها تخضع لقوانين طبيعية مادية لا غير وأن التطور الذي يحدث فيها هو تطور طبيعي، لكن الحدس يقدم لنا تصور عكس العقل هو أن الحياة في تطور خلاق ومستمر باختصار هي ديمومة، وهذا لا يعني أن برغسون يلغي دور العقل أمام الحدس، بل يريد أن يطلعنا على حقيقة مفادها أن الحدس مكمل للعقل وأن الحدس الذي يبحث عن الحقيقة يقع في مرتبة تفوق وتتجاوز مرتبة العقل.

يقول برغسون:" إن الحدس الذي نحن بصدد البحث عنه قبل كل شيء هو الذي يشتغل على الديمومة الباطنية. التي تقبض على ذلك التتالي الغير متجاور، كما أنها هي تقدم في الداخل، امتداد غير منفصل للماضي في الحاضر الذي يتخطى نحو المستقبل. أو أكثر من ذلك هو رؤية الروح المباشرة لروحها"(Bergson, p. 27)

هذا وإن مكمن قوة منهج برغسون إلى هذا الحد بإجماع المفكرين والمنشغلين به، تتجلى في البحث عن الديمومة التي هي سر ولغز الوجود، تلك الديمومة التي يظهر من خلالها الوجود وكأنه في تتالي مستمر دون انقطاع، مع ظهور للصور الجديدة فيه والتي بفضلها تكون إمكانية الحياة، إنها ذلك التلاحم الذي يبرز بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا بالطبع يتضح أكثر كما يؤكد بالإقبال المباشر للروح لروحها، أي كلما عملت الروح على استشارة روحها كلما ازداد ذلك وضوحا وتمايزا، وأكثر من ذلك كلما تجسدت فكرة الحدس، هكذا يأخذ مفهوم الحدس طابعا مغايرا لما عرف به عند الفلاسفة السابقين من أنه مجرد نشاط من نشاطات العقل.

إن برغسون هنا يسعى لتدعيم وجهة النظر القائلة بأن الحدس هو الجهد الذي تتخذه الذات أثناء مراجعة ذاتها وتكشف عن عدد لا متناهي من الحالات الشعورية المتدفقة والكامنة داخلها، إن هذا الجهد الروحاني العميق، والمطلق يتخطى حدود العقل، وما مهمة العقل إلا وهي قائمة على الإدراك الجزئي للحقائق متخذا في ذلك الطريقة التحليلية والتركيبية، بينما يكون الحدس كمنهج هو هذا الاتحاد والتعاطف المطلق الذي يتجلى بين الذات الشاعرة والحقائق الكلية المطلقة (محمد، 1973، صفحة 71) إنه باختصار حدس شعوري روحاني، يقول برغسون تعبيرا عن هذا الموقف:" الحدس نترجمه من خلال الشعور عامة"(Bergson, p. 28) معنى ذلك أن الحدس لا يمكن أن يتضح لنا أو على الأقل نعبر عنه ونترجمه دونما يحضر الشعور كذلك، إن الذات هي التي تمارس الشعور، والديمومة التي تتخلل الوجود تستشرها الذات كلما مارست جهد الحدس، أي تكتشفها من خلال الشعور وذلك الشعور هو الذي يترجم ويعبر عن مقولة "الحدس"

على الصعيد نفسه يقول برغسون:" يتضح لي بأن الحدس يسلك في غالب الأحيان في الحقل التأملي سلوكا أشبه ما يكون بشيطان سقراط في الحياة العملية، أو على الأقل يبدأ من خلال هذا الشكل، وبناء على هذا الشكل يستمر في تقديم تجلياته الخالصة: التي تدافع. وأمام الأفكار الدقيقة التي نتقبلها، والأطروحات التي تبدو بديهية، والتأكيدات العلمية التي اتضحت أنها علمية واضحة، يوحي في أذن الفيلسوف بكلمة: مستحيل" .Bergson, p) (120انطلاقا من هذا إذا كان برغسون قد أثبت بأن الحدس هو منهج الذات في عملية المعرفة فإن ذلك المنهج وهو يصفه، يشبه المنهج السقراطي في عملية التأمل، أي عندما تسلكه الذات تشبه في ذلك السلوك الشيطاني الذي يسلكه سقراط في حياته العملية، بأن يتظاهر أمام الغير أنه جاهل لكل حقيقة، ثم يظهرها للأخر بكل صرامتها، إن هذا السلوك عندما يسلكه الإنسان دائما يهتف له في أذنه بأن تقبل المعارف والقوانين والحقائق مستحيل معنى ذلك أنه لا يمكن تقبلها هكذا وفقط دون فحص ومحص ومباحثة.

كما يتأكد أيضا أنه لا يوجد أي حقيقة مطلقة تقدم خارج إطار هذا الحدس. وكل ما هو متبقي فهو من اهتمام التحليل الذي يمارسه العقل ونطلق هنا الحدس على هذا التعاطف الوجداني الذي ننتقل به إلى باطن الموضوع من أجل التطابق مع ما كليته، ونتيجة لذلك فهو غير قابل للتعبير. بالعكس من ذلك نجد التحليل هو العملية التي تستحضر الموضوع بكامل عناصره المدركة سابقا، أي مما يتشكل منه أو من موضوع آخر(Bergson, p. 181)

3. أسس ومبادئ الحدس:

إن الحدس عند برغسون قائم على ثلاثة مبادئ أساسية بل هي خطوات لا يمكن بدونها معرفة طبيعة هذا المنهج:

_ المبدأ الأول: يتجلى أساسا في كيفية التعاطي مع المشكلات ونعني بذلك الطريقة التي بها نستطيع طرح مشكلة من المشكلات، لأنه في رأي برغسون خلق المشكلة وإبداعها وكيفية طرحها أهم من حلها، لأنه إذا توصلنا إلى فكرة الطرح، الذي يكون وراء ذلك هو ممكن، وقابل للتفسير، أو بعبارة أدق يجب أن نفكر في حل المشكلات التي نستطيع خلقها وطرحها.

_ المبدأ الثاني: يتمثل في عملية إدراك الفروقات والتمايزات التي تتجلى لنا في الطبيعة، كمعرفة العلاقة الموجدة بين الأشياء ومختلف الظواهر، وذلك هو المبدأ الذي أهملته الميتافيزيقا التقليدية، وأغفلت عنه. _المبدأ الثالث: وهو من

المبادئ الضرورية والمتمثلة في إدراك وحدس كل شيء في الزمان الشعوري الحقيقي أو الديمومة وليس الزمان المرتبط بالمكان. (دلوز، 1997، صفحة 07)

إن هذه المبادئ الثلاث التي اقترحها برغسون لمنهجيته الطريفة في المعرفة، هي بمثابة حل للجدلية القائمة بين الذات والموضوع، وإعادة توطين الذات داخل العملية المعرفية، بالكيفية التي تجعلها تعيد الاعتبار في كيفية الاستحواذ والتعامل مع موضوعها، إنها طريقة منظمة في المعرفة سواء في كيفية بلوغ حقيقة الشيء أو حل مشكلة من المشكلات، هذا ما نكتشفه من خلال تفحص هذه المبادئ:

_ المبدأ الأول: ضروري في عملية المعرفة، وهو المبدأ الذي يعلمنا من خلاله برغسون كيفية إتقان لعبة طرح المشكلات والتعاطي معها، ذلك ما يتطلب اجتهادا كبيرا ومضنيا لأن المشكلة على سبيل المثال هي مجموعة من التساؤلات التي ينبغي أن تكون لها حلول، إذن علينا أن ندرك طريقة طرحها وحلها، وإلا ما الفائدة من طرحها وحلها، وفي نظر برغسون ذلك يعلمنا الدقة في البحث المعرفي.

_ المبدأ الثاني: مجاله يتمثل في إعادة النظر في تلك العلاقة التي تربط بين الشيء والظاهرة أو بين الشيء والشيء ذاته هذا أيضا يرسخ في أذهاننا تقنية المقارنة بين الأشياء ومختلف الظواهر مع إدراك كل الاختلافات والتداخلات الموجودة فيما بينها في الطبيعة أو المحيط الخارجي.

يقول دلوز:" في هذا الجهل للفروقات الحقيقية في الطبيعة يظهر كل مصدر المشكلات الزائفة والأوهام التي نرزح تحتها(...)" (دلوز، 1997، صفحة 19)

_المبدأ الثالث: هو في صدارة المبدأين الأولين، إنه المبدأ الذي يعمل برغسون على تثمينه، بل يعد من صميم انشغاله الفلسفي، وعلى أهميته يلتزم برغسون على تأكيده وتطبيقه بقوة، ولو أن بدونه يستحيل فهم الميتافيزيقا الجديدة التي يريد تجسيدها، وفي الحقيقة هذا المبدأ يكرس مسألة في غاية الأهمية داخل حقل المعرفة، وهي أن الوسيلة التي ينبغي اعتمادها أثناء إدراكنا لشيء ما هي الحدس، انطلاقا من الحدس كما يعتقد برغسون نستطيع أن نتخيل الأشياء المراد إدراكها داخل زمان يدعى بالزمان الشعوري، أو الزمان الكيفي، باختصار هو الديمومة، إن هذا الزمان يلقب عند برغسون بالزمان الحقيقي وذلك لسبب بسيط مفاده هو أن الذات هي التي تشعر به وتدركه عن طريق شعورها وانفعالها ومعاناته لها إن لم نقل تحدسه، هذا هو الزمان الذي لا يمكن عده أو إحصائه، كذلك هو الزمان الذي تعذر العلم بكل آلياته ووسائله معرفته، ولو أن العلم يتكلم فقط باسم الزمان الكمي الذي يتحدد في المكان إنه زمان الساعة والثانية والدقيقة.

يتأكد من هذا المنطلق أن برغسون بهذا المبدأ استطاع أن يميط اللثام عن مسألة الزمان التي وقع الخلط فيها في مباحث الميتافيزيقا التقليدية، كما تصدى بهذا المبدأ لكافة النزعات العلمية والمادية التي فرطت في استخدام العقل لوحده في فك عقدة هذه المسألة، ولو أن كل الجهود التي بذلت في هذا المجال لم تكن نهايتها حميدة، فإذن لهذا السبب اقترح برغسون منهج الحدس كمكمل ومدعم للمنهج العقلي بغية بلوغ الصدارة في البحث المعرفي.

يقول محمد علي أبو ريان في قراءته لبرغسون:" برغسون لا يعترف بطريقة التحليل الفلسفي التي ترد مذهبا ما إلى عناصر سابقة عليه فحسب، وبذلك تضيع أصالة الفيلسوف، وكأنه يهاجم الطريقة التقليدية في دراسة المذهب الفلسفي ويضع مكانها دراسة تقوم على الاقتراب من الحدس الأصلي للمذهب كلما أمكن ذلك، إن الفلسفة تتجه إلى

حدس الديمومة أي حدس المطلق ومسايرته في ذبذباته وفي حيويته أما العلم فهو يوقف الديمومة لكي يدرس جزءا ما منها (ريان، 1996، صفحة 397)

لكن إذا كان برغسون استطاع أن يؤسس لطريقة ومنهجية صارمة عنوانها "الحدس" تمكننا من بناء ميتافيزيقا جديدة، وكذا طريقة محورية مثلت عمود البحث المعرفي والتفلسف الحقيقي، ما الدعي إلى ظهور الكثير من المفكرين والعلماء والفلاسفة الذين انتقدوا هذا التوجه وقدموا صورة هلامية عن هذه الطريقة السحرية التي عمل برغسون على صياغتها، بغية بيان كيفية إخراجها إلى العلن وتجسيدها إنهم وقفوا موقف الحائرين المتسائلين.

لعل غاستون باشلار من بين العلماء المنتفضين في وجه برغسون حول هذه الطريقة المعرفية وإن كان باشلار تكلم في مقاربته عن حدس عنوانه "حدس اللحظة" يختلف عن الحدس البرغسوني الذي هو "حدس الديمومة"، يتساءل باشلار بحذق ويقول:" ما عسى أن تكون هذه اللحظة في نظر برغسون؟ ليست إلا قطيعة مصطنعة تساعد التفكير المبسط الهندسي، والذهن نتيجة عجزه عن مسايرة ما هو حيوي يعمد إلى إيقاف حركة الزمن في حاضر يبقى دائما مصطنعا. وليس هذا الحاضر إلا عدما خالصا لا يقدر على أن يفصل حقيقة الماضي عن المستقبل. (باشلار، 1986، صفحة 22)

إن باشلار في مقاربته عن الحدس يؤكد عن اللحظة أي يمكن أن ندرك الأشياء الموجودة أمامنا في اللحظة التي هي عليها سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهذا الإدراك مصطنع، لكن لا يمكننا إدراكها بما هي في زمان متواصل ماض، حاضر مستقبل، هذا وإن العقل لا يستطيع أن يقدم صورة عن الزمان وهو في صيرورته وحيويته وأكثر من ذلك نجد تلك اللحظة التي يقتطعها العقل في الحاضر مثلا لا توقف حركة الزمان الدائمة كأن تفصل مثلا الماضي عن الحاضر أو الحاضر عن المستقبل هذا ما نجد يتناقض مع مقاربة برغسون في الحدس بأن الزمان الذي يتصوره الحدس لا يمكن تقطيعه أو إيقافه لأن ذلك هو نفي لعملية التغير والخلق والتطور في الحياة، كذلك نجد الكثير من الفلاسفة السابقين عن برغسون تصور بأن الحدس نشاط من نشاطات العقل ولو أن ديكارت بين فيما سبق بأن صحة ووضوح فكرة وبداهتها ليس لأن الحدس قدم هذا العمل بل إن العقل هو الذي أدرك كل الاختلافات والفروقات هذه الفكرة وبين في النهاية بداهتها (زيدان، 1974، صفحة 53)

4. المناقشة:

من هذا المنطلق نجد أن مفهوم الزمان عند برغسون يختلف عن مفهوم الزمان عند غاستون باشلار، الزمان الذي يريد أن يؤكده باشلار هو زمان في اللحظة مثال ذلك عندما انتظر اناء من الماء يمتلئ حسب باشلار هذه لحظة تمر مباشرة دون أن تؤثر في طبيعتي وشخصيتي أو وجودي، لكن عند برغسون نجد العكس تماما لحظة الانتظار هي لها تأثير كبير جدا في كينونتي ووجودي، يؤكد برغسون عكس باشلار أن الزمن ليس ممتدا في المكان لذا مفهوم الزمن ليس هو مادي والعلاقة الموجودة بين الزمان والمكان هي علاقة التداخل الإدراكي الذي يجمع الزمان بالمكان ليس علاقة جدل ديالكتيكي بل علاقة جدل تكاملي إدراكي معرفي الزمان لا يضاد المكان في علاقة جدلية بل هما جوهران متكاملان لا وجود لاحدهما من غير دلالته حسب باشلار ومن قبله برجسون كل عشوائية مكانية في نظام الاشياء والطبيعة يتأسس عليها نظاما طارئا جديدا لا يلغي بصفته الخارجية عشوائية المكان هذه العشوائية المكانية التي تنظّم نفسها بدلالة عشوائية الزمان التي إعتبرناها خاطئة حسب فلسفة افلاطون. الزمان لا ينّظم المكان بل يدركه كما هو

كموجود. والمكان ينّظم نفسه بدلالة تنظيمه عشوائية الزمان المتعالق مع موجودات أيضا بضوء مقولة افلاطون المكان معطى قبلي منظم يستبق الزمان وجودا يجعلنا ندرك حقيقتين اولاهما رغم عشوائية الزمان المنسوبة له من قبل افلاطون إلا أن ميزة الزمان الإطلاقية التي تعجز كل موجود مجاراتها هو أن الزمان نظام يحتوي الوجود والطبيعة والمكان بغض النظر عن دوره السلبي أو الايجابي لهذا الاحتواء الإدراكي لمكان لا يدركه العقل مجردا عن زمن إدراكه والغريب بالأمر كيف يكون المكان معطى قبليا نظاميا يعقبه معطى بعديا زمانيا يفتقد النظام؟. علما أن مصدر خلقهما واحد هو الله حسب افلاطون وفلاسفة مؤمنين عديدين أعقبوه. فقط ما يمكن أن نصل إليه هو أن المكان سابق عن الزمن والزمن في حد ذاته نستشعره فقط عن طريق الحدس وليس المكان هو الذي يحدده (اليوسف، 2022، صفحة ص 2)

من خلال ما سبق نجد برغسون يعتبر أن الروح هي أصل جميع الأشياء، وأنَّ الزمن مسار مُتَّصل لا فواصل فِيه، يَمتاز بالدَّيمومة والحركة المستمرة اللانهائية ولا يمكن معرفة الديمومة التي تسري ففي الوجود أو الحياة إلا بالحدس (الإدراك الصوفي) حيث يتطابق فعل المعرفة مع فعل الواقع والحدس حسب برغسون هو الجهد المبذول لمعرفة الموضوع من الداخل (اكتشاف باطن الشَّيء). والحدسُ لَيس ناتجاً عن الغريزة، بل هُوَ ناتج عن التفكير العقلي المتواصل، والتأمل الفكري المستمر (عواد، 2020، صفحة ص2_3).

يشكل الحدس في فلسفة هنري برغسون إحدى المنعطفات الحاسمة التي أعادت تشكيل العلاقة بين الفلسفة والحياة، بين المعرفة والعاطفة، بين العقل والزمن، لقد خاض برغسون معركة فكرية ضد ما اعتبره تشيئا للعقلانية الحديثة، التي جعلت من الفكر أداة لتجميد الواقع وتحويله إلى مفاهيم مجردة، ومن الزمن مجرد وحدات قابلة للقياس والملاحظة. أمام هذا التوجه العقلاني الصارم، يقترح برغسون الحدس كأداة بديلة، بل كطريق فريد للوصول إلى أعماق الحقيقة غير أن هذا الطرح، على ما فيه من جدة وأصالة، لم يمر دون أن يثير موجة كبيرة من النقد، سواء داخل الأوساط الفلسفية أو العلمية، لما ينطوي عليه من إشكالات معرفية ومنهجية

الحدس البرغسوني، كما يتصوره صاحبه، لا يُقارب الواقع من الخارج عبر تصنيفه وتحليله، بل يندمج فيه مباشرة، ويتماهى مع حركته الداخلية، إنه نمط من الإدراك الحدسي المباشر، لا يقوم على التمثّل أو المجاز أو القياس، بل على الدخول المباشر في التجربة الحية للموضوع، فالحدس الفلسفي عند هنري برغسون بهذا المعنى هو عيش مباشر للمدة الزمنية التي تدعى بالديمومة والتي تمثل لجوهر الحياة، وهو يتطلب من الذات أن تتخطى آليات الفهم العقلي والتحليلي لتتحد بالحركة الداخلية للواقع ذاته، لكن هذه النظرة، التي تقوم على تجاوز العقل لصالح شعور باطني داخلي، تثير الكثير من التحفظات لدى النقاد، الذين اعتبروا أن الحدس بهذا المعنى، لا يقوم على أسس منهجية متينة، بل ينتمي إلى مجال العاطفة والتجربة الذاتية الخاصة، التي لا يمكن تعميمها أو إخضاعها للفحص والمراجعة، فمن أبرز الإشكالات التي أثارها النقاد ضد برغسون أن الحدس، كما صاغه، لا يتمتع بأي قابلية للتحقق أو للتكرار، فهو تجربة فريدة بطنية لا يمكن مشاركتها أو وصفها بدقة. وهذا الطابع الذاتي يجعله غير مؤهل، في نظرهم، لأن يكون أداة لإنتاج معرفة فلسفية أو علمية تشاركية. فالمعرفة، في صيغتها التقليدية، سواء كانت عقلية أو علمية، ترتكز على مفاهيم واضحة، وعلى معايير منطقية يمكن الاتفاق حولها، وعلى نتائج قابلة للتجريب والمراجعة. أما الحدس، فإنه يُقدَّم كخبرة خاصة

لا يمكن إخضاعها لمنطق الإثبات أو النفي، مما يُفقدها الطابع الكوني والموضوعي الذي يُفترض في كل معرفة فلسفية جادة (ريان، 1996، صفحة ص25)

ومن ناحية أخرى، فإن موقف برغسون من العقل لا يخلو من تسرع في الحكم، إذ يُصوّر العقل كأداة لا تلتقط من الواقع سوى ما هو ثابت ومكاناني، في حين أن الحدس وحده يملك القدرة على التماهي مع الحركة الحيوية للواقع. هذا الفصل الصارم بين العقل والحدس، بين التحليل والتجربة، بدا للعديد من الفلاسفة غير مبرَّر، بل ومُفتعل. فالعقل لم يكن، في تاريخ الفلسفة، مجرد أداة للتجميد والاختزال، بل كان أيضًا وسيلة لإنتاج نظريات دقيقة ومعمقة حول الوجود والوعي والحياة. وهكذا، فإن اختزال العقل في وظيفة "تشييئية" وجعل الحدس مقابلًا له كمصدر وحيد للحقيقة، يُعتبر تجاوزًا لمنطق التعدد والتكامل بين الأدوات المعرفية، ويكرّس نوعًا من الثنائية الصارمة التي قد تؤدي إلى انغلاق فلسفة برغسون على ذاتها.

وقد أشار عدد من المفكرين، ومنهم برتراند راسل، إلى أن الحدس عند برغسون يتماهى أحيانًا مع نوع من الكشف الصوفي أو الإلهام الغامض، مما يجعل التمييز بين الفلسفة والدين أو بين العقل والعاطفة أمراً غير واضح في مشروعه، فبدل أن يقدّم برغسون مفهوماً للحدس يمكّن الفلسفة من تجاوز قيود العقل دون أن تسقط في اللاعقل، وفق رأي النقاد على حافة خطاب لا يُميّز بين الشعور الشخصي والتأمل الميتافيزيقي، مما يضعف من مشروعية الحدس كأداة فلسفية ذات دلالة معرفية.

رغم هذه الانتقادات التي وجهت لبرغسون في قضية المنهج الحدسي إلا أنه لا يمكن التستر عن حقيقة مفادها أن المنهج العقلي أو العقل عموما وإن كان له وزن كبير داخل مشهد العملية المعرفية أو له دور كبير في بناء هرم البحث المعرفي، لكنه دائما يبقى محتاج إلى مستوى فيه يعالج كل الأخطاء التي يمارسها أثناء تحريه واستقصائه للحقائق، هذا المستوى لا يستطيع بلوغه في نظر برغسون إنه مستوى الحدس الذي تتجلى فيه الحقيقة في حقيقتها، وإلا ما قيمة الميتافيزيقا دون هذا المنهج القويم.[1]

خاتمة:

بعد هذه الإطلالة البحثية الفلسفية التي ناقشنا فيها أهم الخطوط العريضة لإشكاليتنا المتعلقة بمفهوم الحدس عند برغسون نصل إلى النتائج الآتية:

ـ منهج الحدس هو منهج في المعرفة، هدف برغسون من صياغته هو إعادة هيكلة الطريقة المنهجية في المعرفة، فإذا كانت مناهج البحث عن الحقيقة فيما سبق تسعى للاقتناء تصورات جاهزة نفعية عن الواقع ومختلف الظواهر الكامنة فيه عن طريق العقل، فإن منهج الحدس البرغسوني يستبعد هذا الجهد الناقص في علمية المعرفة ليعيد الاعتبار للواقع، هذا وإنه يجعلنا نحس بنبضات الواقع وذبذباته وهو يتجلى لنا في حقيقته وديمومته الأصيلة.

ـ إن منهج الحدس البرغسوني يكفل لنا حل للجدلية القائمة بين الذات والموضوع ليؤكد لنا من جديد على دلالة وتموقع الذات بالنسبة للموضوع وكذا الموضوع بالنسبة للذات.

ـ لقد صار في إمكان الذات أن تتعاطف وتتحد مع كل ما هو مطلق عن طريق هذا المنهج الحدسي باعتباره منهجا يكشف لها عن عالم المطلق الروحاني الذي هو عالم الحقيقة.

ـ ببساطة ملخص الحدس من حيث هو منهج في المعرفة كما بلوره برغسون هو منهج حالم في اكتشاف قدرة الذات في مسيرتها على تجسيد مبدأ المطلق الروحاني في الواقع عن طريق الاتصال العميق به.

ـ ما ينتج من خلال ما سبق كذلك أن الحدس بوصفه منهجا يحرز أهمية كبرى في فلسفة برغسون وهو القاعدة الأساسية التي بنيت عليه فلسفته، ومنهج لا يقل أهمية ضمن المناهج الأخرى، وأنه المنهج الفعال والأساسي لبناء الميتافيزيقا عنده، أو كما بين أن الحدس الميتافيزيقي الذي يتعذر الوصول إليه بدون المعرفة المادية، هو بمعنى آخر خلاصة وتركيب هذه المعارف، والتي يتميز عنها كما يتميز الاندفاع المستمر عن الطريق الطويل بالحركة، أو مثل توتر النابض الذي يميز الحركات المرئية في بندول الساعة وعلى هذا يكون منهج الحدس يتجاوز الكثير من المناهج الأخرى كالمنهج العقلي، والتجريبي، وغيرها وبالتالي فهو منهج فرادته أنه يجعل من المفكر أو الفيلسوف، يقترب أكثر من عالم المطلق والحقيقة، ولهذا نجد برغسون كثيرا ما يؤكد على ضرورة هذا المنهج ومشروعيته، فإذا كان هذا المنهج هو أساس فهم الديمومة التي هي بمثابة أساس الواقع، فإنه لا يخرج عن كونه معرفة مباشرة فائقة يتحرر فيها الإنسان من التجربة الشائعة العادية ومن المعرفة النفعية للواقع على حد سواء.

إن برغسون من خلال طرحه لهذا المنهج عامة، لا يريد أن يقودنا إلا إلى بناء ميتافيزيقا جديدة من شأنها أن تقدم لنا صورة مطلقة عن الواقع، ذلك الواقع الذي يحس فيه الإنسان بالحرية، ويتلذذ معنى الحياة.

ـ يتبين أيضا من خلال ما قدمناه ان مفهوم الحدس ليس مجرد تصور معرفي عابر بل هو دعامة مركزية في البناء الفلسفي الذي شيده برغسون والذي أراد من خلاله أن يحدث قطيعة جذرية مع التصور العقلاني الكلاسيكي الذي ساد الفلسفة منذ ديكارت وصولًا إلى الوضعية المنطقية فقد أراد برغسون للحدس أن يكون المنهج البديل الذي يعيد للمعرفة حيويتها ويخرجها من أسر التصنيفات الجامدة والتصورات الآلية المغلقة التي تصف الواقع بمعايير خارجية منفصلة عن ديمومته الداخلية فالحدس كما تصوره لا يقترب من الحقيقة عبر التحليل أو التجريد بل يندمج فيها في حركتها الزمنية المتدفقة حيث تصبح الذات في تواصل مباشر مع الوجود لا باعتباره معطى موضوعيًا خارجًا عنها بل كامتداد داخلي لتجربتها في الحياة بهذا المعنى يتجاوز الحدس الفجوة التي طالما فصلت الذات عن الموضوع تلك الفجوة التي عمّقها الفكر العقلاني الحديث حينما أقام بين الإنسان والعالم حجابًا من التصورات المجردة التي تُفهم الواقع لا كما هو بل كما يُصاغ داخل بنيات الذهن وهكذا فإن برغسون يفتح لنا أفقًا فلسفيًا جديدًا لا يتأسس على المسافة بين الذات والموضوع بل على التداخل الحي بينهما حيث يصبح إدراك الشيء هو نوع من التوحد معه لا من تمثيله ومن هذا المنظور يغدو الحدس فعلًا روحيًا داخليًا يحرر الذات من أسر الزمن الميت المقاس ويعيدها إلى الزمن الحي المتدفق زمن الديمومة الذي تتكشف فيه الحياة في أنقى صورها وأكثرها صدقًا.

ـ لا يقف الحدس عند حدود المعرفة فحسب بل يتجاوزها ليغدو أداة أنطولوجية تمكن الإنسان من ولوج المطلق والاتصال به حيث يغدو الواقع نفسه مشبعًا بالروحانية ويستحيل الإدراك إلى خبرة وجودية عميقة تتداخل فيها الحقيقة بالحرية ويتجلى فيها المعنى كحضور داخلي وليس كمعطى مفروض من الخارج فالميتافيزيقا التي يدعونا برغسون إلى بنائها انطلاقًا من هذا المنهج ليست ترفًا عقليًا أو بناء نظريًا منعزلًا عن الحياة بل هي عودة إلى أصالة التجربة وعمق الإحساس وتدفق الوجود ذاته كما يُعاش لا كما يُصنّف إنها ميتافيزيقا تستلهم الحياة في صيرورتها وتقاوم كل ما يجعل منها كيانًا ميتًا خاضعًا للقياس والمردودية والوظيفة.

ـ إننا مع برغسون أمام فلسفة تتخطى مفاهيم الميتافيزيقا التقليدية وتسعى إلى إعادة تشكيل الإنسان ذاته لا كمجرد عقل يفكر أو كذات تعرف بل ككيان يشعر ويعيش ويتصل ويتجاوز وإن كان مشروع الحدس يواجه اعتراضات مشروعة تتعلق بإمكانية التواصل الموضوعي أو القابلية للبرهنة أو حتى حدود اللغة في التعبير عن هذه التجربة الداخلية فإن ذلك لا ينفي الخصوبة الكبرى التي يقدمها هذا المفهوم على مستوى استعادة المعنى في زمن يتجه أكثر نحو التجزئة والتشيؤ والتسليع فالفكر الحدسي البرغسوني هو في جوهره دعوة للعودة إلى الذات العميقة وإلى الإحساس بالواقع كما هو لا كما يُفرض علينا تصوره إنه دعوة للخروج من ضيق المفهوم إلى رحابة التجربة ومن سكون المعرفة إلى حركة الحياة ومن تشييء الزمن إلى معايشة ديمومته الحية

ـ هنا نفهم لماذا ظل برغسون يؤكد أن الحدس هو السبيل الوحيد لفهم الديمومة باعتبارها جوهر الحياة وعمقها الخفي فبه وحده يمكن إدراك ما يتجاوز المظاهر وما يعجز العقل عن إدراكه في صورته المجردة وهو وحده الذي يفتح أمام الإنسان إمكان اختبار الحرية كما ينبغي أن تُعاش لا كخيار بين بدائل بل كطاقة خلاقة منفتحة على الممكن وعلى المعنى الكامن في صيرورة الأشياء

في النهاية لا يمكن اعتبار الحدس نزوة شعورية أو انفعالًا غامضًا بل هو في فلسفة برغسون الطريق إلى الحقيقة والمطلق والحرية والمعنى إنه التعبير الأقصى عن تطلع الإنسان إلى تجاوز ذاته من خلال ذاته والولوج إلى العالم لا كموضوع معرفي بل كحضور وجودي حي يشهد فيه الإنسان على حقيقته الخاصة وعلى كونية الحياة ذاتها.

قائمة المراجع

1. جيل دلوز، (1997)، البرغسونية، ترجمة: أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

Deleuze, J. (1997). Al-Bargasoniyya. Trans. Osama Al-Hajj. Beirut: Al-Mu'assasa Al-Jami'iyya li-l-Dirasat wa-l-Nashr wa-l-Tawzi'.

2. سماح رافع محمد، (1973)، المذاهب الفلسفية المعاصرة، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1.

Muhammad, S. R. (1973). Al-Madhahib al-Falsafiyya al-Mu'asira. Cairo: Maktabat Madbuli, 1st ed.

3. محمد علي أبو ريان، (1996)، تاريخ الفكر الفلسفي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط4.

Abu Rayyan, M. A. (1996). Tarikh al-Fikr al-Falsafi. Alexandria: Dar al-Ma'rifa al-Jami'iyya, 4th ed.

4. غاستون باشلار، (1986)، حدس اللحظة، ترجمة: رضا عزوز وعبد العزيز زمزم، العراق: دار الشؤون الثقافية للطباعة والنشر.

Bachelard, G. (1986). Hads al-Lahza. Trans. Reda Azzouz & Abdulaziz Zamzam. Iraq: Dar al-Shu'un al-Thaqafiyya li-l-Tiba'a wa-l-Nashr.

5. محمود زيدان، (1974)، مناهج البحث الفلسفي، بيروت: جامعة بيروت العربية.

Zidan, M. (1974). Manahij al-Bahth al-Falsafi. Beirut: Jami'at Bayrut al-'Arabiyya.

6. علي محمد اليوسف، (2022)، "برجسون وباشلار: ميتافيزيقا الزمن والنفس"، المجلة الثقافية الجزائرية، الجزائر.

Al-Yusuf, A. M. (2022). "Bargson wa Bachelard: Mitafizika al-Zaman .wa-l-Nafs", Al-Majalla al-Thaqafiyya al-Jaza'iriyya, Algeria

7. إبراهيم أبو عواد، (2020)، "هنري برغسون وفلسفة الروح"، مجلة الكلمة، العدد 160.

Abu 'Awwad, I. (2020). "Henri Bergson wa Falsafat al-Ruh", Majallat al-Kalima, Issue 160.

8. Henri Bergson, (1966), La pensée et le mouvant, 63e édition, Bibliothèque de philosophie contemporaine fondée par Félix Alcane, Paris

9. Didier Frank et Pierre Guénancia, (1984), Philosophie, revue trimestrielle, Les Éditions de Minuit, Numéro 09, 11 mars 2011, Paris.